اسم المصدر: الحياة الطبعة السعودية

التاريـــخ: 23-11-2009 رقم العـدد: 17034 رقم الصفحة: 13 مسلسـل: 73 رقم القصاصة: 1

الفلسطينيون ومسلسل الفرص الضائعة

عرفان نظام الدين *

● كنـا نمنّـي النفس بأن ينتصر العقل وتسـود الحكمة ويحقق الفلسطينيون حلم الأجيال وأمل كل عربي فـي إتمام المصالحة ووضـع حد لهذا العبث المتمادي بالقضية الفلسـطينية وبمصير الشـعب الفلسـطيني بصورة خاصة وبمصيـر العرب كلهم بشكل خاص.

لكن ريـاح القيادات الفلسـطينية لـم ترغب بأن تجري كما تشتهي سفن الأمة وضاعت فرصة تاريخية أخـرى لتنضم الـى مثيلاتها من الفـرص الضائعة التـي أدمن من بيده الحل والربط على التسـبب بها على رغـم كل الحجج والذرائع الواهيـة التي توزع الاتهامات وتتراشـق بها في تحديد المسـؤولية عن سلسـلة الأخطاء والخطايا المرتكبة على مدى أكثر من نصف قرن.

نعم إنه مسلسـل الفرص الضائعـة التي يتحمل مسـؤولية الإمعـان فـي خـوض غمارهـا الخائب الفلسـطينيون قبل غيرهم: القيـادات على اختلاف اتجاهاتها وانتماءاتها وتبريراتها بسـبب تقاعسها وتقصيرها ودخولها متاهات الانقسـام والتشـرذم والصراعـات والخلافـات والانشـقاقات الداخليـة بـدلاً من توجيـه كل جهودها ونضالهـا ضد العدو المشترك.

وجماهير الشـعب الفلسـطيني في الداخل وفي غياهب الشـتات ومخيمات العار والبؤس لسكوتها علـى الضيم والظلـم يوماً بعد يوم وعامـاً بعد عام وخضوعها وقبولها بالواقع الأليم واتباعها القيادات المتشـرذمة والفصائـل المتناحرة ومشـاركتها في الصراعـات والحـروب عبـر اسـتخدامها كأدوات رخيصـة وفي كثيـر من الأحيان فـي محرقة العصر المزدوجـة. هـذه المحرقـة فرعها فلسـطيني بحت وفرعهـا الآخـر إسـرائيلي ظالـم يتبع كل وسـائل القتل والدمـار والتمييز العنصري والمذابح والقمع وجرائم الحرب وانتهاكات حرمة المقدسات وحقوق الإنسان.

وهنـا قـد يسـتغرب البعـض هـذه الاتهامات، وقد يسـتنكر البعض وضع اللوم كلـه على الجانب الفلسطيني ويشير البعض الآخر بيده الى ألف سبب وسـبب ومئة جهـة وجهة تقف وراء مـا يتعرض له الفلسـطينيون وما آلت إليه قضيتهم المقدسـة وما لحق بهم من ظلم وتشـريد وقتـل وحرمان من أدنى حقوقهم كشعب وكبشر مثلهم مثل شعوب العالم.

ولا يحـق لأحد أن ينكر هـذا، ولا أن يعفي العرب من مسـؤولياتهم ويبرئ القيادات والقمم من دم هذا الشـعب. كما لا يمكن لأحد أن يشـارك في اتهام دول العالم بشـرقها وغربها خلال الحرب الباردة وبعدها حتى يومنا هذا بالمشـاركة فـي تدبير هذه الجريمة التاريخية بحق فلسطين وشـعبها والمسؤولية عن التخطيط والتحريض والتنفيذ ثم عن دعم إسـرائيل والانحياز لها في كل المراحل حتى في أشدها سوءاً وسـواداً كما جرى أخيـراً تجاه تقرير غولدسـتون حول انتهاكات إسرائيل خلال حربها على قطاع غزة وارتكابها جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

فالتقصيـر العربـي واضح وصريـح ولا يحتاج الى الدليل أو الإثبـات او التبرير والدفاع والتبرئة، والمسـاهمة في إضعاف القضية والإهمال والتواكل والتخاذل وشق الصف الفلسطيني وتأجيج الصراع بين الفصائل لا يمكن إنكارها ونفيها او التخفيف من وقعها والتقليل مـن أضرارها. والتآمر الدولي ثابت وموثق ولا يحتاج الى براهين. أما المكر الصهيوني والتآمر والظلم والممارسـات القمعية فالمسـؤولية المباشـرة عن كل الجرائم المرتكبـة تقع على عاتق اسـرائيل بكل القوانين والقيم والحسابات ومبادئ الشـرعية الدوليـة ومعاييـر الحـروب والاحتـلال ومواثيق حقوق الإنسان.

وعلـى رغـم كل هـذا هل يحـق لأحـد أن يبرئ نفسه ويغسـل يده من أدران ما يجرى على الساحة الفلسطينية؟

ألـم يحن الوقت ليقف كل فلسـطيني من القاعدة الى القمة ليحاسـب نفسه عن التقصير ويسألها عن مسـؤولية أصحاب القضية عن مسيرة الانكسارات والهزائـم والانحدار و «الفرجة» على الجماهير وهي تذبح مـن الوريد الى الوريـد، والأرض وهي تضيع قطعـة تلو القطعـة، وكل حبـة تراب فيها مقدسـة ومغمسـة بدماء الشـهداء الأبرار، والمقدسات وهي تنتهـك كل يوم والمسـجد الأقصى المبـارك تدنس حرماته يومـاً بعد يوم ويتعرض للتهديد المتواصل بهدمه لبناء الهيكل المزعوم؟

وبغـض النظر عن العوامـل الأخيرة وهي كثيرة ومتعـددة وفاعلـة، نبقى مـع العامل الفلسـطيني لنسأل: كم من الفرص التي أهدرت؟ وكم من الأحداث التي أسـهمت في فتح الأبواب أمام النصر وتحقيق الأهداف تم إغلاقها بعمل أخرق أو بموقف خاطئ أو بقرار فردي أو بانقسام وخلاف وصراع أدخل فيه، أو حرض عليه هذا الطرف العربي والأجنبي أو... ذاك؟

فـي النضـال المسـلح أتيـح المجـال للثـورة الفلسـطينية لتمارسـه بدعم عربي وتأييد شـعبي عـارم... وعندمـا تـم الاعتـراف بمنظمـة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني أضاع المناضلـون البوصلة ووجهوا السـلاح الى صدور بعضهم بعضاً وارتضوا أن يكونوا جزءاً من الصراعـات العربية، وأن يكونـوا أدوات في أيادي أنظمـة متناحرة حتى فـي عز أيام الحـرب الباردة والصراع بين الشيوعية والرأسمالية وبين المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة والمعسكر الشرقي المنضوي تحت اللواء السـوفياتي، ونجمت عن كل

اسم المصدر: الحياة الطبعة السعودية

التاريـــخ: 23-11-2009 رقم العـدد: 17034 رقم الصفحة: 13 مسلسـل: 73 رقم القصاصة: 2

ذلك حروب داخلية وانشقاقات وحركات «تصحيحية» أسـهمت في شـرذمة المنظمة الى فصائل متناحرة لدرجـة أن حركة «فتـح»، كبرى المنظمـات وأعرقها نضالاً وأكثرها شـعبية، تشظت الى خمس حركات و «الجبهة الشـعبية» قسّمت الى جبهات تحمل أسماء متشابهة وتوجهات متباينة.

ومن رحم هذا الصـراع المؤذي توالدت الحروب والانتصـارات الوهميـة والانكسـارات المتواليـة وضاعـت الفرصة تلو الفرصة بعد فتح جبهة الأردن ثم إغلاقها نتيجة لمآسـي أيلول الأسـود في معارك ١٩٧٠، ثم شـهدنا فتح جبهـة لبنان وإغلاقها نتيجة للحـرب الأهليـة اللبنانية وتـرداد مقولـة: تحرير فلسطين يمر عبر بلدة جونيه اللبنانية.

وكانت النتيجة تدمير المظلة اللبنانية الحاضنة الفلسطينيين وإزهاق أرواح الألوف من الفلسطينيين واللبنانيـين وتوجت بالاجتياح الإسـرائيلي للبنان والخروج الفلسطيني عبر مرفأ بيروت الى المجهول ومن ثـم وقـوع مذابح صبـرا وشـاتيلا والمجازر الأخرى التي ارتكبها العدو الغاشم.

وفي مسـار السـلام حانت فرص كثيـرة لم يتم استغلال معظمها لتحقيق الأهداف المرجوة ولو في حدودهـا الدنيا المعقولة، أو تم الخوض في غمارها بأساليب ملتوية وخاطئة فضاعت مثلها مثل فرص ذهبيـة رفضت في حينهـا ثم تبين خطـأ القرارات المتسـرعة أو المنقـادة للغرائـز وجـرت محاولات العودة اليها لكن بعد فوات الأوان.

وحتى اتفاقيات أوسلو، على رغم المآخذ الكثيرة والانتقادات المحقـة والثغرات الفاضحة، كان يمكن أن يبنـى عليها الكثيـر من الإيجابيـات وتطويرها لتحقيق أكبـر قدر من المكاسـب والإنجازات وقطع الطريق على إسـرائيل التي عملـت على إفراغها من معانيهـا ومبانيها وتحويلها الـى حبر على ورق لا تساوي قيمة ما أهدر عليها.

وهذا ليس أوان الحسـاب ولا مجـال جلد الذات وحصـر الاتهـام بجهـة واحـدة، مـع اعترافنا بأن المؤامـرة الصهيونيـة كبيـرة ومتعـددة الوجـوه والوسـائل والإمكانات الوحشـية والمتوحشة، لكن المجـال للحديث عن الفرصـة التاريخيـة المتاحة لتحقيق المصالحة الوطنية الفلسطينية وإنهاء هذا الانقسام المخزي في الصف الفلسطيني الذي تحول الـى جرح نازف في قلب كل فلسـطيني وكل إنسـان عربي حر ومؤمن بقضايا أمته وعلى رأسها القضية الفلسـطينية. فما جـرى لا يمكن تبريـره ولا الدفاع عنـه مهما كانت طروحات ومبـررات أطراف النزاع، والمضي في غي لا رد عليه سوى الإنكار والاستنكار والرفـض والشـجب. فكيـف لأي عاقـل أن يجد أي تبريـر لمـا جرى في غـزة ولما يتعرض له شـعبها الأبـي العريق في النضال فيما العدو يعربد ويصول ويجول ويهدد ويهوّد أرض فلسـطين الطاهرة شبراً شبراً وحياً حياً ومدينة مدينة؟

ولا حاجـة هنا لتكرار شـرح مجريـات الأحوال التي آلت إليها القضية الفللسطينية، فكل التفاصيل معروفة ومكشـوفة، ولكـن اللوم كل اللـوم على من يضيـع الفـرص لرأب الصـدع وتصحيـح الأخطاء ومسح الخطايا وكفكفة الدموع ومعالجة الجراح.

الفرصة الذهبية الأولى كانت في أطهر مكان على الأرض، من مكة المكرمة، عندما جمع خادم الحرمين الشـريفين الملـك عبدالله بـن عبدالعزيـز قيادات حركتي «فتح» و «حماس» وشـجعها على المصالحة وناشدها باسـم إخوة الدم والدين والحق والعروبة وحلّفهـا بالله العلي القدير أن لا تخون الأمانة فلبت هذه القيادات النداء ووقعت وثيقة المصالحة فتنفس العرب الصعداء... إلا أنه لم تكد تمضي ساعات قليلة حتـى جاء من نقـض العهد ونسـف المصالحة قبل أن يجـف حبر وثيقتهـا وكان ما كان من انقلاب غزة والمعـارك الدامية والاتهامـات المخزية وفصل غزة عن الضفة الغربية فيما العدو يتفرج شامتاً لينقض بعدهـا على غزة في حرب وحشـية لم يشـهد العالم مثيـلاً لها. وجـاءت الفرصة الثانية عبر الوسـاطة المصرية التي بذل الرئيس حسني مبارك ومعاونوه جهوداً جبـارة لإتمامها على رغم العوائق والعقبات إلـى أن نجحوا في إعـداد وثيقة تاريخيـة كان من المقـرر أن يتم الاحتفال بالتوقيـع عليها في أواخر شهر ايلول (سبتمبر) في القاهرة.

وجـاءت واقعة تقريـر غولدسـتون، وتفاصيلها معروفة، لتسهم في نسف ما تم التوافق عليه. وهكذا ضاعت فرصة أخرى ضمن مسلسـل إضاعة الفرص واتسـع الشـرخ وزاد المأزق تعقيـداً خاصة عندما تمت الدعوة الى انتخابات تشريعية ورئاسية في ظل سلطة تفقد شرعيتها: حكومة تصريف أعمال لم تنل الثقـة، وحكومة مقالة تنتهي ولايتها خلال أسـابيع ورئيس انتهت صلاحيته، ومجلس تشـريعي معطل وضياع في ضيـاع وانتخابات حدد الرئيس محمود عبـاس موعداً لهـا في ٢٤ كانون الثانـي (يناير) ثم تبيّن اسـتحالة الالتـزام بهذا الموعد مـا يعني ان الفراغ الدستوري سيكون سيد الموقف.

وعلـى رغم كل ذلـك علينا أن لا نفقـد الأمل وأن ندعـو إلـى تكاتف الجهـود لرأب الصدع وتسـارع الخطوات وتكثيـف الجهود لإنقاذ مـا يمكن إنقاذه وإعـادة الأطراف الفلسـطينية إلى جـادة الصواب رحمـة بالشـعب وتلبية لصرخـات أطفالـه وأنين رجاله ونسـائه لعل ذرة من ضمير تنتفض وتتحقق المصالحـة ويعاد توحيد الضفة والقطاع وتسـتغل هذه الفرصة قبل فوات الأوان لأن ضياعها هذه المرة سـيكون ثمنه فادحاً وسـيخلف دماراً بلا حدود ولا سقف.

---

* كاتب عربي